

الغرب والإسلام في الجزائر

تحليل لمعوقات التفاهم

د. بشير خليفي، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية

- جامعة معسكر -

لقد سائر الإسلام منذ دخوله إلى الجزائر تحولات وتشكيلات ارتبطت أحيانا بطريقة فهمه وتمثله الأمر الذي أوجد تحولا عبر بعد زمني شاقولي ارتبط بتأثير عامل الزمن بالنظر إلى التبدلات الحاصلة من خلال عنصر التغيير والقدم، وكذا في بعد أفقي أوجد مفهومات متنوعة وتشكيلات مختلفة.

إن وضع الإسلام في الجزائر يشكل خصوصية، فعلى الرغم من التقاطعات العديدة التي تبرزها صورة الفرد المسلم والعادات المنتشرة بين المسلمين، إلا أن ذلك لم يمنع من اتسام المجتمع الجزائري بالخصوصية المتأتية أساسا من الحوادث والمنعطقات التاريخية والاجتماعية التي لعب فيها الدين الدور الأبرز.

لقد شكّل الإسلام الشكل الهوياتي الأبرز في فترة الإستعمار وهوما سعت جمعية العلماء

يشكل الواقع الاجتماعي الجزائري حالة فريدة للتحليل السوسيولوجي والأنثروبولوجي بالنظر إلى خصوصيته التي تبرز في ضوء الإشكالات والمعادلات المطروحة معرفيا والمرتبطة بالظواهر والتحويلات التي يعيشها عبر الفترات الزمنية، الأمر الذي يولد أسئلة مفصلية تتناول وصف هذه الظواهر وتعمق في أسبابها.

إن محاولة تحليل ملامح المجتمع الجزائري وفهم خصوصيته عائدة بالأساس إلى رغبة في فهم هذه المظاهر والتحويلات بالشكل الذي يمكن إدراكه في ضوء المعرفة بالمحددات المعرفية بشخصية الفرد الجزائري.

وهي المحددات التي يلعب فيها الإسلام دورا بارزا، كعقيدة تمد معتنقيها بجملّة التفسيرات التي يعرف بها نفسه ويربر بها وجوده.

المسلمين إلى تجليه مع بداية الثلاثينات من القرن المنصرم، بغرض العودة إلى الأصول وبالتالي التميز عن الهوية المقابلة لمشكلة للمستعمر.

وهو المجال الذي اتضح فيه الآخر كاتناء مختلف فكرياً وعقدياً مع رغبة جامحة في تأسيس " النحن " عبر ملامح الوطنية التي تشكل اللغة العربية وجهها الآخر.

لقد أصبح من الواضح أن التشكل الهوياتي قد برز على ضوء السعي لتمثيل نموذج مواطنة يشكل الإسلام عنوانه الأبرز. بمقابل آخر ينتمي إلى مجموعة مفارقة ويختلف عن " النحن " في الشكل والنفسية واللغة والمعتقد.

مما أدى إلى بروز الدين كضامن مفصلي للهوية الوطنية ومحفز للدفاع عنها، وهو ما اتضح بشكل بارز في عهد الإستعمار في ضوء تغذية روح المقاومة وكذا في إشارة " الإسلامية " التي كثيرا ما عبرت عما هو جزائري.

الإسلام والغرب: الصورة العامة

للصراع:

وضع الإسلام بمقابل الغرب أوالعكس في إطار ثنائي، مسألة تحتاج إلى تجلية بطرح التساؤل عن الحدود الضامنة لهذا التشكيل الهوياتي (الإسلام بمقابل الغرب).

والواقع أن موضوع الغرب كدائرة مغلقة متماسكة ارتبطت في تقابلها مع الإسلام في إطار صراع وتنافس يرمي إلى اكتساب مناطق نفوذ بالشكل الذي حدث مع الإستعمار أوبشكل متقدم مع الحملات العسكرية المسماة بالصليبية.

ليتحدد هذا الإطار في سمات الآخر المختلف، المتطور، الغالب - بلغة ابن خلدون - الذي ينبغي إما إزاحته بالسيطرة عليه وبالتالي تحطيم ما توصل إليه أو التفاعل معه ومحاورته والإستفادة من منجزه الحضاري على مختلف الأصعدة.

لقد أوجدت التعقيدات التي أبرزتها العولمة في توجهاتها السياسية والاقتصادية والثقافية، المؤسسة على أهمية الربح والعائد المادي كفيصل لكل المقاربات التفاعلية سعيا للتحكم والتفرد في وسائل الإنتاج وآلياته وبالتالي ربح أكبر قدر من الأسواق ورؤوس الأموال.

وهو التوجه الذي برز في الولايات المتحدة الأمريكية من خلال أدبيات المحافظين الجدد وتطبيقاتهم السياسية، حيث وجدوا في حوادث الحادي عشر من سبتمبر الذريعة المثلى لمعاودة الظهور بشكل بارز عن طريق توطيد الإحساس

بالإلتواء الوطني، باستثمار تمثيلات المفكرين
كإدموند بيرك وليو ستراوس الداعية إلى توطيد
مكامن القوة والتفوق عن طريق إحداث
الضربة الإستباقية " لقوى " الشر المحض.

وقد تجسد هذا الطرح عن طريق
غزو العراق وأفغانستان، وكذا بفتح معتقل
غوانتانامو الشهير الذي أسرت فيه السلطات
الأمريكية من وصفتهم " بالإسلاميين
المتشددين".

لقد أجب الخطاب الإعلامي الدعائي
لبعض القنوات والوسائل الإعلامية " صورة
المسلم المتشدد" وراحت تحشد هذا التصور
بالحمولات التي يبرزها أحيانا بعض المسلمين
أنفسهم من خلال قناعاتهم وتصرفاتهم المنافية
لفهم الإنساني للإسلام.

الأمر الذي أدى إلى بروز ظاهرة
الإسلاموفوبيا كحالة نفسية واستجابة لمبررات
عديدة كانت الدافع نحو تهديد تمثيلات أخرى
غربية عن الإسلام، تتسم بالهدوء والتنوع لصالح
تصورات تنميطية ثابتة ترى في صورة المسلم
حالة بلاغية للشهوة والقسوة⁽¹⁾

والواقع أن الإسلاموفوبيا تشكل حالة
إجحاف في حق المسلمين في ضوء كراهية
شديدة وغير مبررة للإسلام برزت كحالة
مؤججة بعد حوادث الحادي عشر من سبتمبر
عبر مظاهر عنصرية صريحة أو توظيفاً لقوانين تحد
من " أسلمة الغرب".

الغرب والإسلام في الجزائر: إستقصاء العوائق.

هذه العلاقة ليست نتاجاً لعقلانية معزولة،
وإنما هي نتاج لتفاعل حثيث بين تصورات وبنى
مختلفة تتأثر بالمنطلقات وكذا التراكمات
والأبعاد، وهي الحالة التي يمكن أن نعت بها
محاولة فهمنا للحالة الإسلامية في الجزائر تحديداً
في علاقتها مع الغرب.

تفرّد الحالة الإسلامية في الجزائر بشكل
إضافة للمعطى الإسلامي العام، وهو الأمر المتأني
في خصوصية البداية من كرنولوجيا المجتمع
الجزائري بداية من دخول الإسلام واعتناق
الجزائريين له مروراً بالإستعمار الفرنسي وصولاً
إلى قيام الحركات الإسلامية وكذا إلى حالته
اليوم، عن طريق الخصوصية الحادثة وطنياً عبر

1- جعيط هشام، أوروبا والإسلام، دار الطليعة، بيروت، 1995،
ص: 16.

الكرونولوجيا الخاصة بالشأن الإسلامي وكذا وضعيته على حد سواء، ومن جهة أخرى في التباين الحادث بين الفلسفات التي تتبناها الحركات الإسلامية والتي يمكن إدراكها مثلا في التوجهات السياسية للأحزاب التي تتخذ الإسلام منطلقا لها⁽¹⁾.

والواقع أن بروز التوجه الإسلامي عبر قناعات تدعو إلى تطبيقه وتفعيله يعود لأسباب خارجية مرتبطة بالجو العام على الصعيد العالمي والإسلامي، في ضوء نجاح الثورة الإيرانية (1979)، وكذا الغزو السوفياتي لأفغانستان (1979)، وصولا إلى إتفاقية كامب دايفيد في السنة نفسها والتي رأى فيها كثير من المعتقدين في جدوى الحل الإسلامي إعترافا بالعدو الأبدي. كما يعود هذا البروز لأسباب داخلية تعود جذورها إلى مرحلة ما قبل الدولة الوطنية وبشكل جلي مع إسهامات جمعية العلماء المسلمين التي رفعت راية الهوية الإسلامية، مما يشكل الهوية الضائعة التي اتجهت بعض التمثلات الدينية إلى محاولة استعادتها بعد الاستقلال كفعل يرمي إلى تشكيل ملمح هوياتي جزائري مختلف

في شكله ومضمونه عن الهوية التي سعى الإستعمار الفرنسي إلى ترسيخها.

وقد تم ذلك عبر إنشاء "جمعية القيم" في 14 فبراير 1963 بتأطير من الهاشمي تيجاني وعبد اللطيف سلطاني، في محاولة لتأصيل البعد العروبي والإسلامي، وكذا من خلال إصدار مجلة التهذيب الإسلامي عبر إسهام شهري يشجع تفعيل القيم⁽²⁾.

هذا زيادة على إسهامات ملتقيات الفكر الإسلامي بالنظر إلى العناية السياسية والاجتماعية التي لاقتها حينذاك، حيث شكلت فرصة للقاء بعلماء الإسلام خصوصا، وبالتالي مد المشروع الديني في الجزائر بمبررات إضافية للتطور والاستمرارية.

لذلك كثيرا ما كان ينظر إلى مضادات الهوية الإسلامية على أنها صنعة غريبة أو إستعمارية بالأساس، وهو الوعي الذي اتجه في ضوءه أشد مناصريه في منتصف الثمانينيات إلى تنظيم الحملات التأديبية بغرض تطهير المجتمع من مراكز الفجور وصولا إلى تبني الموقف السياسي

(2) عروس الزبير، في بعض قضايا المنهج وتاريخ الحركة الإسلامية بالجزائر، مجلة نقد للدراسات والنقد الاجتماعي، مطبوعات المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، العدد الأول، 1992.

1)-Boubekeur Amel, **Political Islam in Algeria**, CEPS Working Document N 268, Belgium, 2007, p:01.

في شكله الذي يشجب تصرفات السلطة الخارجة عن التعاليم الدينية محل الاعتقاد.

وهو المنطق الذي وجد في الخلفية السوسيو تاريخية، السند الملائم لاستمرارية الفعل المرسخ للتصور الهوياتي والذي يحيل بالمقابل إلى طريقة فهمها للآخر المختلف، والذي عادة ما كان ينظر إليه كعائق رئيسي أمام الرغبة في التطور بحسب المقاسات الإسلامية وبالشكل الذي يمكن إدراكه من خلال عدد لا يستهان به من القيم المتباينة التي يمكن التفريق في ضوءها بين الشرق والغرب، وهي القيم المتباينة التي أوجدت إنشطارا إيديولوجيا بين خطاب محافظ على القيم الأصيلة دافع إلى إحياء الغائب منها، وخطاب آخر ينعت بالتحديثي يأخذ مبرراته من منطلقات تقنية ولغوية، الأمر الذي أسس لثنائية ظلت تحافظ على وجودها بالرغم من التشظي السياسي الذي حصل بإفئار الأحادية الحزبية، في ضوء تبني تعددية أبانت عن حضور إسلامي قوي في البداية.

لقد نظر الغرب في صورته السياسية خصوصا بعيني الريبة لتطور المد الإسلامي في الجزائر التي تحتل موقعا جيواستراتيجيا يمنحها فرصة الحيابة على وضعية متقدمة في علاقتها مع

أوروبا وكذا بسبب العلاقة التي تفرضها حضور الجالية الجزائرية.

هذا زيادة على المصالح الاقتصادية والتجارية المشتركة، بالنظر إلى دور الجزائر المفصلي في تزويد أوروبا بالبترول والغاز وكذا إعتبارها سوقا نموذجيا لتصريف المنتج الأوروبي.

وقد أجمت تلك الرؤية تصريحات وتصرفات بعض المنتسبين الذين رأوا في فرنسا - مثلا - الحليف الجزائري الأول، وفي الغرب عموما سببا في تفشي ظاهرة الفساد والإنحلال التي تمثلها القيم الغربية من خلال الأطروحات الليبرالية التي تدعو إلى الحرية الشخصية والمساواة بين الجنسين.

معالم في طريق التفاهم

لا أحد ينكر الإسهامات والإجتهادات التي تجسدت في أشكال التفاهمات بين الإسلام والغرب، ففي الجزائر مثلا يمكن الحديث عن الكاتبة السويسرية الروسية الأصل "إيزابيل إيرهارت" التي عمدت في كتبها إلى الإحتفاء بالإسلام، ما دفعها لإعتناقها واستلهاام جوانبه الروحية بالشكل الذي برز في مؤلفها "تحت الظلال الدافئة للإسلام".

وهو الإحتفاء الذي نجده عند "إتيان ديني" الرسام العالمي الفرنسي الأصل الذي أبرز برسوماته سماحة الإسلام وبعده الإنساني⁽¹⁾. والواقع أن علاقة الغرب بالإسلام لم تخرج في عمومها عن تصورات يغلب عليها طابع القبليّة والثبات في ضوء حالة غرائبية مشبعة بروح الأسطورة كما هو حادث في ألف ليلة وليلة، أو حالة إنبهار وتقدير، رأى البعض أن باطنها لا يخرج عن إطار التقريظ الزائد عن حده الذي يدرأ الرغبة في العمل والتطوير، أو حالة ثالثة هي نتاج تراكم تاريخي أوجد بروزه العالمي مع حوادث الحادي عشر من سبتمبر في الشكل الذي أصبح يعرف بالإسلاموفوبيا.

لقد برز هذا التفريع الذي وجد في الجزائر نتيجة تأثيرات الساحة العالمية وكذا بالنظر إلى خصوصية الحالة الجزائرية المتأتية مما عاشته من عنف في ما أصبح يسمى "بسنوات الدم والدمار".

لقد شهدت الجزائر في أوج العنف الذي عايشته تقتيلا وإبادة لعدد من الأجانب تحت طائلة مبررات دينية رمت الأجانب بالعدائية

على مستوى الملة والقناعات وكذا بالنظر إلى موقف بلدانهم الأصلية.

ولازالت بعض الحوادث تلقي بظلالها على طبيعة التفاهم، خصوصا ما تعلق بحادثة رهبان تبحرين بدير سيده الأطلس بولاية المديّة، حيث تم قتل مجموعة من الرهبان، الأمر الذي وسّع الهوة بالشكل الذي أثب الرأي العام الفرنسي خاصة والغربي عموما على الإسلام والمسلمين.

هذا زيادة على ما يتم الترويج له من قبل بعض وسائل الإعلام ذائعة الصيت، التي تضخم تصريحات المتشددين وتبرز صورهم وكلماتهم مدعمة بترجمة حرفية مباشرة لما يقولون والتي يعمدون فيها إلى تكفير الغرب ويدعون إلى إبادة.

ويبقى الحوار رهينا للذكريات المؤلمة والمفاهيم الخاطئة المؤسسة على عناد المتلقى وتسرع في الأحكام أحيانا، الأمر الذي أدى في شكله العام إلى إقصاء متبادل أبانته مواقف كثيرة تراكمت عبر التاريخ، خصوصا تلك المواقف ذات السمة النفسية عبر تداعيات الحادي عشر

1)- Bruno Etienn, **La France et L'islam**, Hachette, paris, 1989,p :110.

من سبتمبر أوفي ضوء تلك النظرة النمطية الثابتة التي تربط بين المسلم والتخلف والإرهاب.

وكذا من خلال تصور الضفة الأخرى، التي ترى في الغرب سببا مباشرا لأزمة فلسطين وكذا سياسات القهر التي تعيشها الجاليات الإسلامية التي لا تحترم خصوصياتها عبر حالات منع الحجاب على سبيل المثال لا الحصر.

إن كثيرا من المؤسسات السياسية والدينية ممثلة في اليمين السياسي والديني تدق نواقيس الخطر عبر ما يسمى بالخطر الإسلامي من خلال تنامي عدد المسلمين وهو الأمر الذي أبرزه اليمين السياسي الفرنسي عبر لوحات إنتخابية حذرت من الخطر الإسلامي في صورة لإمرأة متحجبة وبأيقونة تحيل إلى ما هو جزائري، الأمر الذي فهم أنه إستثمار للأزمة الجزائرية لمصالح إنتخابية.

وفي ظل هذا الزخم من الصراع يبرز شكل آخر في الرغبة في التفاهم وتجاوز مختلف العوائق وتفكيكها سواء في ممارسة النقد الذاتي أو التوجه نحو الآخر بغرض تأسيس منطلقات حوار يدرأ التأويل المتطرف والصور النمطية.

وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى إسهامات المفكر الجزائري مصطفى شريف الذي يتوجه نحو تبني عمق أكاديمي في أطروحاته المعرفية من خلال رغبته في إشراك أهم رموز المعرفة الإنسانية في الحوار الدائر مع الغرب، ممثلة في جاك دريدا وجون لوك نانسي.

كما يعتقد مصطفى شريف أن الغرب لازال يضع العوائق أمام حوار علمي هادف وذلك في تبنيه لمفاهيم مؤسسة على مصالحه الخاصة وعلى توظيف سلوكيات المتزمتين واعتبارها دلالة على جوهر الإسلام⁽¹⁾.

لقد عمد مصطفى شريف إلى تفكيك معوقات التفاهم وذلك بتبني رؤية في حوار يبدأ أولا بالإستعداد النفسي، ليتجه على مستوى القصد نحو الطبيعة الفكرية، العلمية والدينية، وهو ما اتضح في توجهه نحو أعلى الهرم المسيحي، حينما إلتقى مع البابا بنديكت السادس عشر في 11 نوفمبر 2006⁽²⁾.

وتأسس دعوة مصطفى شريف على عدم تبديد المسلمين لجهودهم أثناء إبراز مكامن قوة الدين الإسلامي، بالقدر الذي تساهم هذه

1)-Cherif Mustapha, **L'islam, L'autre et la Modernité**, ANEP, Alger, 2005,p :18.

2)- Bousquet François, **Le Dialogue Interreligieux**, Edition Institut Catholique de Paris,2009,p :55.

الجهود خصوصا المعرفية منها في تجاوز النتائج الكارثية لحوادث 11 من سبتمبر الشهيرة.

تجدر الإشارة إلى أن التقصي المعمق بغرض التعرف على أسباب الحقد والكراهية أمر مفصلي لإيجاد محفزات هذه العلاقة التي ينبغي أن تتوجه في إطار إنساني يدرأ الأفكار المتزمتة التي ترى في الغرب إباحية وفي الشرق تعصبا لصالح ميزان قوى جديد ينبنى أولا على قيم التعايش، فقد كان التعايش سببا مهما في اعتناق إيزابيل إيرهارت الإسلام، حينما تعرفت على زوجها الجزائري "سليمان هني"، كما كان للصدقة حضورها مع الرسام العالمي إتيان ديني الذي عاش ومات وفيها لصديقه الجزائري سليمان بن براهيم بن عمر.

أخيرا، يمكن القول إن الحالة الجزائرية لواقع الإسلام في تفردتها وعموميتها تتقاطع في جوانب عديدة مع الحالات الموجودة في المجتمعات الإسلامية الأخرى ليتحدد في هذا

الإطار فهم الغرب للإسلام أساسا بالمسلمين وقدرتهم على الإقناع وكذا قوتهم المادية إضافة إلى سلوكياتهم التي تعكس البعد الإنساني للإسلام على الرغم من الحاصل في حملات التشويه التي يتعرض لها.

وتبدأ الخطوة الأولى بتفعيل المؤسسات الدينية الكفيلة بتبليغ الإسلام الحضاري والعمل من أجل تفعيله وترويجه عن طريق الأفكار والسلوكات، التي ينخرط فيها جميع المسلمين وخصوصا أولئك المنتمين إلى مجال البحث.

إن تآزر الجهود في خدمة أهداف إنسانية محددة، سيجلب فائدته لصالح أكبر قدر من الناس في الشرق والغرب، بالشكل الذي يعطي للآدمية صفتها الحقيقية، خصوصا وأننا نعيش في زمن يروج فيه كثير المقولة الصراع الثقافي الذي لا مكان فيه لثقافة لا تملك القدرة على الإقناع والانتشار.

المراجع:

- 1)- جعيط هشام، أوروبا والإسلام، دار الطليعة، بيروت، 1995.
- 2)- عروس الزبير، في بعض قضايا المنهج وتاريخ الحركة الإسلامية بالجزائر، مجلة نقد للدراسات والنقد الاجتماعي، مطبوعات المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، العدد الأول، 1992.
- 3)-Boubekeur Amel, **Political Islam in Algeria**, CEPS Working Document N 268, Belgium, 2007.
- 4)-Bousquet François, **Le Dialogue Interreligieux**, Edition Institut Catholique de Paris, 2009.
- 5)-Bruno Etienn, **La France et L'islam**, Hachette, paris, 1989.
- 6)-Cherif Mustapha, **L'islam, L'autre et la Modernité**, ANEP, Alger, 2005.

